بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي

المنتدى الإسلامي الكاثوليكي الثاني

موقع المغطس - الأردن

٢٥ - ٢٧ ذو الحجة ١٤٣٢هـ الموافق ٢١ -٢٣ تشرين ثاني/ نوفمبر ٢٠١١م

مفهوم الإيمان

الشيخ علي زين العابدين الجفري

عمّان - المملكة الأردنيّة الهاشميّة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمد المؤمنين، وصلى الله وسلّم على سيدنا محمّد وعلى آبائه وإخوانه من الأنبياء والمرسلين وآله وصحبه أجمعين

مفهوم الإيمان

الشيخ علي زين العابدين الجفري

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[الأنفال،٨: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[الأنعام،٦: ٨٢]. وقال سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾[طه، ٢٠: ١٢٤-١٢٦]. وقال عزّ وجلّ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾[الشمس، ٩١: ٧-١٠].

إنّ أزمة الإنسان المعاصر مرجعها في الحقيقة والجوهر إلى واقع أزمة إيمانية ترتبت عليها منظومة أزمات في النفس وفي منهج وطريقة التفكير والرؤية وفي السلوك والمعاملات، ومن ثم آلت إلى مجموعة من الأزمات في واقع الحياة. فكل أزمات العالم تجد جذورها وأسبابها الحقيقية في حالة الفرد القلبية والنفسية، وفي نظرته إلى الحياة التي يعيشها وكيفية تعامله مع أحداثها؛ وقد ترتب على إغفال النظر إلى حالة الفرد الإيمانية المعالجة السطحية لإشكالات الواقع دون ربطها بأصلها وجوهرها الذي هو الحالة الإيمانية وفقه المعاملة مع الله عز وجل، فصارت مجرد حلولٍ لظواهر فتراكمت الأزمات واستحكمت.

فالنظام العالمي العلماني يعاني من تفاقم الإحساس واطّراد الشعور بالفراغ الروحي وعدم السعادة حتى في أجيال الشباب، مما ألجأهم إلى البحث من جديد والعودة ثانية إلى الدين بطريقة أو بأخرى، ومن لم يطمئن منهم إلى دين أو لم يقتنع بالصور التقليدية التي صار الدين يُعرض بها؛ بدأ يبحث هو في داخله أو يحاول أن يشبع تطلع باطنه إلى الصلة بعالم الغيب من خلال التأمل أو الاهتمام بالسحر والشعوذة؛ وما إقبال الناس الشديد على أفلام السحر والخوارق، ورواج برامج التنجيم والشعوذة إلا مؤشر واضح على مدى شعورهم بالحاجة الى ملء الفراغ الإيماني بالغيب.

ومن ثم فهناك تقارب يصل إلى درجة الإجماع بين أصحاب الخطابات الدينية السماوية حول معاناة العالم وحاجته إلى خطاب إيماني في مرحلة فارقة لها دلالاتها في افتقاد الفرد والمجتمع والدولة والعالم أجمع للحياة الإيمانية، وما يترتب على هذا الخواء الروحي من ظواهر فردية أو اجتماعية شديدة السلبية والخطورة في جانبي الإفراط والتفريط، وأنها ليست بالتوجهات النظرية وإنما هي في عمق الحياة اليومية لفئات متزايدة لم تعد لديها الثقة والقناعة لا بالنظام العلماني ولا بالأشكال الدينية التي فرضت الثنائية المعروفة بين الجسد والروح وبين الحياة المادية والحياة المعنوية.

وأخيراً نجد أن ثمة حاجة ملحة إلى إعادة التذكير بمفهوم الإيمان وتحرير مناطه في ظل ما نشهده من نكوص عن مسلمات الفطرة الإنسانية السوية وادعاء نسبية القيم والفضائل من ناحية، ومن تضييع الثوابت والإغراق في المتغيرات خضوعاً لحكم الواقع من ناحية أخرى، في ظل فلسفات مادية زعمت أن الإيمان بالله تعالى من شأنه أن يعطل طاقات الإنسان عن التفكير الجاد والعمل المنتج مع الاستشهاد بما في الحياة المعاصرة من رغد معيشة – متوهم[1]– قامت على غيبة من الإيمان بالله عز وجل، ومن ثم رسوخ القناعة بعدم الحاجة إلى الإيمان ولو من ناحية عملية دنيوية.

هذا إلى جانب ما أصبح سائداً من نزعات ترد جدوى كل الأفكار والقيم إلى ما تفضي إليه من نفع مادي في حياة الفرد والجماعات، وأيضاً– وهو الأهم – ظهور تيارات دينية أعادت تصوير مفهوم الإيمان والتوحيد طبقاً لتوجهاتها في التشدد والتطرف والعنصرية مما أدّى إلى نوعٍ من سوء الفهم وعدم الإدراك الصحيح لحقيقة مفهوم الإيمان.

[1] إن ارتفاع نسبة الانتحار ونسبة تعاطي المخدرات في أكثر مجتمعات العالم رفاهية، واشتداد الاضطرابات بين الشعوب،وانتشار المجاعات والأمراض – مع توفر الغذاء والدواء – وكثرة الحروب مع الاستهانة بقيمة حياة الانسان وتخريب البيئة والعبث بمقدرات الأرض التي استخلفنا الله عليها لهو دليل قاطع على أن هذا الرغد مجرد وهم مناقض للحقيقة.

ونتناول الحديث عن مفهوم الإيمان من خلال النقاط التالية:

أولاً: الإيمان في اللغة والاصطلاح

ثانياً: معنى الإيمان وأركانه

ثالثاً: مراتب الإسلام والإيمان والإحسان

رابعاً: صلة الإحسان بالإسلام والإيمان

خامساً: زيادة الإيمان ونقصانه

سادساً: بيان أركان الإيمان الستة

سابعاً: شعب الإيمان

ثامناً: بناء النفس المؤمنة مقدمة بناء الحضارة الإيمانية

أولاً: الإيمان في اللغة والاصطلاح

يقول صاحب مقاييس اللغة: "الْهَمْزَةُ وَالْمِيمُ وَالنُّونُ أَصْلَانِ مُتَقَارِبَانِ: أَحَدُهُمَا الْأَمَانَةُ الَّتِي هِيَ ضِدُّ الْخِيَانَةِ، وَمَعْنَاهَا سُكُونُ الْقَلْبِ، وَالْآخَرُ التَّصْدِيقُ. وَالْمَعْنَيَانِ مُتَدَانِيَانِ. قَالَ الْخَلِيلُ: الْأَمَنَةُ مِنَ الْأَمْنِ. وَالْأَمَانُ إِعْطَاءُ الْأَمَنَةِ. وَالْأَمَانَةُ ضِدُّ الْخِيَانَةِ"[٢].

وفي لسان العرب: "أمن: الأَمانُ والأَمانةُ بِمَعْنًى. وَقَدْ أَمِنْتُ فأَنا أَمِنٌ، وآمَنْتُ غَيْرِي مِنَ الأَمْن والأَمان. والأَمْنُ: ضدُّ الْخَوْفِ. والأَمانةُ: ضدُّ الخِيانة. والإِيمانُ: ضدُّ الْكُفْرِ. والإِيمان: بِمَعْنَى التَّصْدِيقِ، ضدُّه التَّكْذِيبُ. يُقَالُ: آمَنَ بِهِ قومٌ وكذَّب بِهِ قومٌ، وآمَنَ بِالشَّيْءِ: صَدَّقَ وأَمِنَ كَذِبَ مَنْ أَخبره. والإِيمانُ إظهارُ الْخُضُوعِ والقَبولِ للشَّريعة ولِما أَتَى بِهِ النبيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واعتقادُه وتصديقُه بِالْقَلْبِ، فَمَنْ كَانَ عَلَى هَذِهِ الصِّفة فَهُوَ مُؤْمِنٌ مُسْلِم غَيْرُ مُرْتابٍ وَلَا شاكٍّ، وَهُوَ الَّذِي يَرَى أَن أَداء الْفَرَائِضِ واجبٌ عَلَيْهِ لَا يَدْخُلُهُ فِي ذَلِكَ ريبٌ. وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: وَما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا؛ أَي بمُصدِّقٍ. والإِيمانُ: التصديقُ".

"وأَما الإِيمانُ فَهُوَ مَصْدَرُ آمَنَ يُؤْمِنُ إِيمَانًا، فَهُوَ مُؤْمِنٌ. واتَّفق أَهلُ الْعِلْمِ مِنَ اللُّغَوِيّين وَغَيْرِهِمْ أَن الإِيمانَ مَعْنَاهُ التَّصْدِيقُ. وقالَ الأَزْهرِيُّ: أَصْلُ الإِيمانِ الدُّخولُ فِي صِدْقِ الأَمانَةِ الَّتِي ائْتَمَنَه اللَّهُ تعالَى عَلَيْهَ"[٣].

---

[٢] أحمد بن فارس الرازي، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، [بيروت:دار الفكر، ١٩٧٩]، مادة أمن، ١٣٣/١.

ومفهوم الإيمان في الاصطلاح هو التصديق الجازم للواقع عن دليل، وقد توافق أهل التخصص على تعريف الإيمان بأنه اعتقاد بالجَنان وقول باللسان وزاد بعضهم عبارة: وعمل بالأركان، أو بحسب عبارة أبي عبيد القاسم ابن سلام، "الْإِيمَانُ بِالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ بِالْقُلُوبِ, وَشَهَادَةِ الْأَلْسِنَةِ وَعَمَلِ الْجَوَارِحِ"[٤].

ثانياً: معنى الإيمان وأركانه

وقد ورد معنى الإيمان وخصاله وأركانه في مرتبة بين الإسلام والإحسان من حديث سيدنا جبريل عليه السلام الأشهر في الصحيحين، فعن عُمَرَ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ: "بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ، وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قَالَ: أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ، قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟ قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ"[٥].

فأركان الإيمان كما اعتنى بتوضيحها أئمة علماء الحديث في مقدمة مؤلفاتهم في الحديث النبوي الشريف هي الإيمان بالله تعالى وبالملائكة وبالكتب السماوية وبالرسل والأنبياء وبالبعث واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، وقد أفرد علماء الأمة المؤلفات الطوال شرحاً واستنباطاً للحديث السابق في معاني ودلالات أركان الإيمان

---

[٣] ابن منظور الأفريقي، لسان العرب[بيروت:دار صادر، ١٤١٤هـ]، مادة أمن، ٢٣/١٣.

[٤] أبو عبيد القاسم بن سلام، كتاب الإيمان، [بيروت:مكتبة المعارف، ٢٠٠٠]، ص ١٠.

[٥] أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان والإسلام والقدر وعلامة الساعة، ٣٦/١ برقم ٨؛ والإمام البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، ١٩/١ برقم ٥٠؛واللفظ لمسلم.

والفرق بين الإسلام والإيمان، حتى إنّهم أطلقوا على هذا الحديث لقب أم السنة كما سميت سورة الفاتحة بأم الكتاب[٦].

ثالثاً: مراتب الإسلام والإيمان والإحسان

ينقل الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم بداية كتاب الإيمان عن الزهري "أن الْإِسْلَامُ الْكَلِمَةُ وَالْإِيمَانُ الْعَمَلُ، وَاحْتَجَّ بِالْآيَةِ يَعْنِي قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾[الحجرات، ٤٩: ١٤]؛ وَذَهَبَ غَيْرُهُ إِلَى أَنَّ الْإِسْلَامَ وَالْإِيمَانَ شَيْءٌ وَاحِدٌ وَاحْتَجَّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[الذاريات، ٥١: ٣٥-٣٦]".

وقَالَ الْخَطَّابِيُّ: "وَالصَّحِيحُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يُقَيَّدَ الْكَلَامُ فِي هَذَا وَلَا يُطْلَقَ،وَذَلِكَ أَنَّ الْمُسْلِمَ قَدْ يَكُونُ مُؤْمِنًا فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ وَلَا يَكُونُ مُؤْمِنًا فِي بَعْضِهَا، وَالْمُؤْمِنُ مُسْلِمٌ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، فَكُلُّ مُؤْمِنٍ مُسْلِمٌ وَلَيْسَ كُلُّ مُسْلِمٍ مُؤْمِنًا، وَإِذَا حَمَلْتَ الْأَمْرَ عَلَى هَذَا اسْتَقَامَ لَكَ تَأْوِيلُ الْآيَاتِ وَاعْتَدَلَ الْقَوْلُ فِيهَا وَلَمْ يَخْتَلِفْ شَيْءٌ مِنْهَا، وَأَصْلُ الْإِيمَانِ التَّصْدِيقُ وَأَصْلُ الْإِسْلَامِ الِاسْتِسْلَامُ وَالِانْقِيَادُ؛ فَقَدْ يَكُونُ الْمَرْءُ مُسْتَسْلِمًا فِي الظَّاهِرِ غَيْرَ مُنْقَادٍ فِي الْبَاطِنِ، وَقَدْ يَكُونُ صَادِقًا فِي الْبَاطِنِ غَيْرَ مُنْقَادٍ فِي الظَّاهِرِ"[٧].

وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ أَيْضًا فِي قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً"[٨]،"فِي هَذَا الْحَدِيثِ بَيَانٌ أَنَّ الْإِيمَانَ الشَّرْعِيَّ اسْمٌ لِمَعْنًى ذِي شُعَبٍ وَأَجْزَاءٍ لَهُ أَدْنَى وَأَعْلَى، وَالِاسْمُ يَتَعَلَّقُ بِبَعْضِهَا كَمَا يَتَعَلَّقُ بِكُلِّهَا،

---

[٦] إذ ينقل ابن حجر العسقلاني في فتح الباري:"قَالَ الْقُرْطُبِيُّ هَذَا الْحَدِيثُ يَصْلُحُ أَنْ يُقَالَ لَهُ أُمُّ السُّنَّةِ لِمَا تَضَمَّنَهُ مِنْ جُمَلِ عِلْمِ السُّنَّةِ وَقَالَ الطِّيبِيُّ لِهَذِهِ النُّكْتَةِ اسْتَفْتَحَ بِهِ الْبَغَوِيُّ كِتَابِيه المصابيح وَشرح السُّنَّةِ اقْتِدَاءً بِالْقُرْآنِ فِي افْتِتَاحِهِ بِالْفَاتِحَةِ لِأَنَّهَا تَضَمَّنَتْ عُلُومَ الْقُرْآنِ إِجْمَالًا،وَقَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ اشْتَمَلَ هَذَا الْحَدِيثُ عَلَى جَمِيعِ وَظَائِفِ الْعِبَادَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ مِنْ عُقُودِ الْإِيمَانِ ابْتِدَاءً وَحَالًا وَمَآلًا وَمِنْ أَعْمَالِ الْجَوَارِحِ وَمِنْ إِخْلَاصِ السَّرَائِرِ وَالتَّحَفُّظِ مِنْ آفَاتِ الْأَعْمَالِ حَتَّى إِنَّ عُلُومَ الشَّرِيعَةِ كُلَّهَا رَاجِعَةٌ إِلَيْهِ وَمُتَشَعِّبَةٌ مِنْهُ قُلْتُ وَلِهَذَا أَشْبَعْتُ الْقَوْلَ فِي الْكَلَامِ عَلَيْهِ مَعَ أَنَّ الَّذِي ذَكَرْتُهُ وَإِنْ كَانَ كَثِيرًا لَكِنَّهُ بِالنِّسْبَةِ لِمَا يَتَضَمَّنُهُ قَلِيلٌ".أحمد بن على بن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، [بيروت:دار المعرفة،١٣٧٩هـ]،ج١، ص ١٢٥.

[٧] المرجع السابق، ج١،ص ١٤٥.

[٨] أخرجه الإمام مسلم في صحيحه،كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، ٦٣/١ برقم٣٥.

وَالْحَقِيقَةُ تَقْتَضِي جَمِيعَ شُعَبِهِ وَتَسْتَوْفِي جُمْلَةَ أَجْزَائِهِ كَالصَّلَاةِ الشَّرْعِيَّةِ لَهَا شُعَبٌ وَأَجْزَاءٌ، وَالِاسْمُ يَتَعَلَّقُ بِبَعْضِهَا وَالْحَقِيقَةُ تَقْتَضِي جَمِيعَ أَجْزَائِهَا وَتَسْتَوْفِيهَا، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الْحَيَاءُ شُعْبَةً مِنَ الْإِيمَانِ"[٩]، وَفِيهِ إِثْبَاتُ التَّفَاضُلِ فِي الْإِيمَانِ وَتَبَايُنُ الْمُؤْمِنِينَ فِي دَرَجَاتِهِ".

وَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو مُحَمَّدٍ الْحُسَيْنُ بْنُ مَسْعُودٍ الْبَغَوِيُّ: "جَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْإِسْلَامَ اسْمًا لِمَا ظَهَرَ مِنَ الْأَعْمَالِ وَجَعَلَ الْإِيمَانَ اسْمًا لِمَا بَطَنَ مِنَ الِاعْتِقَادِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَنَّ الْأَعْمَالَ لَيْسَتْ مِنَ الْإِيمَانِ وَالتَّصْدِيقَ بِالْقَلْبِ لَيْسَ مِنَ الْإِسْلَامِ؛ بَلْ ذَلِكَ تَفْصِيلٌ لِجُمْلَةٍ هِيَ كُلُّهَا شَيْءٌ وَاحِدٌ وَجِمَاعُهَا الدِّينُ، وَلِذَلِكَ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ذَاكَ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ"، وَالتَّصْدِيقُ وَالْعَمَلُ يَتَنَاوَلُهُمَا اسْمُ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ جَمِيعًا، يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[آل عمران، ٣: ١٩]، ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة، ٥: ٣]، فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّ الدِّينَ الَّذِي رَضِيَهُ وَيَقْبَلُهُ مِنْ عِبَادِهِ هُوَ الْإِسْلَامُ، وَلَا يَكُونُ الدِّينُ فِي مَحَلِّ الْقَبُولِ وَالرِّضَا إِلَّا بِانْضِمَامِ التَّصْدِيقِ إِلَى الْعَمَلِ"[١٠].

والظاهر عند البعض أن الإسلام والإيمان إن اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا، فإذا جاء ذكرهما في موضع مشترك انصرف معنى الإسلام إلى الأعمال الظاهرة وانصرف معنى الإيمان إلى الأعمال الباطنة،أما إذا ورد ذكر أحدهما دون الآخر؛ فسر بالمعنيين جميعاً ولا فرق بينهما حينئذ.

وقد فَسَّرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْإِيمَانَ بِإِيمَانِ الْقَلْبِ وَبِخُضُوعِهِ وَهُوَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ. وَفَسَّرَ الْإِسْلَامَ بِاسْتِسْلَامٍ مَخْصُوصٍ هُوَ الْمَبَانِي الْخَمْسُ. وَهَكَذَا فِي سَائِرِ كَلَامِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُفَسَّرُ الْإِيمَانُ بِذَلِكَ النَّوْعِ وَيُفَسَّرُ الْإِسْلَامُ بِهَذَا، وَذَلِكَ النَّوْعُ أَعْلَى. وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "الْإِسْلَامُ عَلَانِيَةٌ وَالْإِيمَانُ فِي الْقَلْبِ"[١١]، فَإِنَّ الْأَعْمَالَ الظَّاهِرَةَ يَرَاهَا النَّاسُ، وَأَمَّا مَا فِي الْقَلْبِ مِنْ تَصْدِيقٍ وَمَعْرِفَةٍ وَحُبٍّ وَخَشْيَةٍ وَرَجَاءٍ فَهَذَا بَاطِنٌ؛ لَكِنْ لَهُ لَوَازِمُ قَدْ تَدُلُّ عَلَيْهِ، وَاللَّازِمُ لَا يَدُلُّ إِلَّا إِذَا كَانَ مَلْزُومًا.

فَفِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو وَأَبِي هُرَيْرَةَ جَمِيعًا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ"[١٢]؛ فَفَسَّرَ الْمُسْلِمَ بِأَمْرٍ ظَاهِرٍ وَهُوَ

---

[٩] الحديث السابق.

[١٠] الإمام النووي، المرجع السابق، ج١، ١٤٥.

[١١] الحديث عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: الإِسْلاَمُ عَلاَنِيَةٌ، وَالإِيمَانُ فِي الْقَلْبِ، قَالَ: ثُمَّ يُشِيرُ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ، ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، قَالَ: ثُمَّ يَقُولُ: التَّقْوَى هَا هُنَا، التَّقْوَى هَا هُنَا. أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ١٣٤/٣ برقم١٢٤٠٨.

[١٢] حديث:"الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ آمَنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ"، أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ٣٧٩/٢ برقم ٨٩١٨، والإمام الترمذي في سننه،أبواب الإيمان،باب ما جاء في أن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، ١٧/٥ برقم ٢٦٢٧.

سَلَامَةُ النَّاسِ مِنْهُ، وَفَسَّرَ الْمُؤْمِنَ بِأَمْرٍ بَاطِنٍ وَهُوَ أَنْ يَأْمَنُوهُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ،وَهَذِهِ الصِّفَةُ أَعْلَى مِنْ تِلْكَ، فَإِنَّ مَنْ كَانَ مَأْمُونًا سَلِمَ النَّاسُ مِنْهُ؛ وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ سَلِمُوا مِنْهُ يَكُونُ مَأْمُونًا، فَقَدْ يَتْرُكُ أَذَاهُمْ وَهُمْ لَا يَأْمَنُونَ إِلَيْهِ خَوْفًا أَنْ يَكُونَ تَرَكَ أَذَاهُمْ لِرَغْبَةٍ وَرَهْبَةٍ؛ لَا لِإِيمَانٍ فِي قَلْبِهِ"[١٣].

ويقول الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره: "بَيْنَ الْعَامِّ وَالْخَاصِّ فَرْقٌ، فَالْإِيمَانُ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِالْقَلْبِ وَقَدْ يَحْصُلُ بِاللِّسَانِ، وَالْإِسْلَامُ أَعَمُّ، لَكِنَّ الْعَامَّ فِي صُورَةِ الْخَاصِّ مُتَّحِدٌ مَعَ الْخَاصِّ وَلَا يَكُونُ أَمْرًا آخَرَ غَيْرَهُ، مِثَالُهُ الْحَيَوَانُ أَعَمُّ مِنَ الْإِنْسَانِ لَكِنَّ الْحَيَوَانَ فِي صُورَةِ الْإِنْسَانِ لَيْسَ أَمْرًا يَنْفَكُّ عَنِ الْإِنْسَانِ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْحَيَوَانُ حَيَوَانًا وَلَا يَكُونُ إِنْسَانًا، فَالْعَامُّ وَالْخَاصُّ مُخْتَلِفَانِ فِي الْعُمُومِ مُتَّحِدَانِ فِي الْوُجُودِ، فَكَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ وَالْمُسْلِمُ وَالْحَقُّ أَنَّ الْمُسْلِمَ أَعَمُّ مِنَ الْمُؤْمِنِ وَإِطْلَاقُ الْعَامِّ عَلَى الْخَاصِّ لَا مَانِعَ مِنْهُ، فَإِذَا سُمِّيَ الْمُؤْمِنُ مُسْلِمًا لَا يَدُلُّ عَلَى اتِّحَادِ مَفْهُومَيْهِمَا"[١٤].

ونعلم من هذا مكانة القلب محلاً للتصديق والإيمان وموضع نظر الحق عز وجل، إذ يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ"[١٥]؛ ولهذا نفى الله تعالى وصف رسوخ الإيمان في قلوب الأعراب الذين ادعوا مقام الإيمان لما دخلوا في الإسلام وأثبت لهم المشاركة في أعمال الإسلام الظاهرة في قوله تعالى:﴿**قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ**﴾[الحجرات، ٤٩: ١٤]؛ فالإيمان أخصّ من الإسلام والإحسان أخصّ وأعلى مرتبة من الإيمان.

وبداية الإحسان ومنتهاه وغايته الارتقاء بالعبد في مراتب مراقبة الله تعالى وشهوده في كل أعماله وسلوكه، وهو درجة ثالثة بعد الإسلام والإيمان وفوقهما وبناء عليهما لا تحليقاً خارج رحابهما، فلا إيمان بلا إسلام، ولا إحسان بلا إيمان؛فهو إحسان يراه المؤمن في كل أحواله، وفي العبادة بالمعنى الشامل الذي لا يقصرها على النسك والنوافل، بل لقد وردت للحديث روايات أخرى: "الإحسان أَنْ تَعْمَلَ لِلَّهِ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ"[١٦]، وأيضاً: "الإحسان أَنْ تَخْشَى اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنَّكَ إِنْ لاَ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ"[١٧]؛ فهذا مما يجعل من الإحسان سلوكاً معتاداً من المؤمنين في كل أعمالهم وأحوالهم.

---

[١٣] تقي الدين أبو العباس ابن تيمية، مجموع الفتاوى، [المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف،١٩٩٥] ج ٧، ص ٢٦٣-٢٦٤.

[١٤] أبو عبد الله فخر الدين الرازي، مفاتح الغيب أو التفسير الكبير،[بيروت:دار إحياء التراث العربي،١٤٢٠هـ]، ط٣، ج٢٨، ص ١١٦ و١٨١.

[١٥] أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه،[١/٢٠ برقم ٥٢] والإمام مسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، [٣/١٢١٩ برقم ١٥٩٩] عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.

[١٦] أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١/٣١٤ برقم ١٨٤.

[١٧] أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسلام ما هو وما هي خصاله، ١/٣٠ برقم ١٠٨.

رابعاً: صلة الإحسان بالإسلام والإيمان

الإسلام حكم يطلق على من شهد بلسانه أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وهو حكم دنيوي يتصل بأحكام ومعاملات تتعلق بنسبة صاحبه إلى المسلمين، فهو منهم يتزوج ويرث ويصلى عليه ويدفن في مدافنهم إلى آخر الأحكام الظاهرة. ويترتب عليه الالتزام بأداء بقية الأركان من الصلاة والزكاة والصوم والحج.

لكن حقيقة ذلك وثماره القلبية والأخروية متوقفة على أن يكون ذلك الالتزام بأداء الأركان خالصاً لله تعالى بلا نفاق ولا رياء ولا سمعة ولا عجب ولا كبر، وهذا إنما يكون عندما يؤدي المسلم أركان الإسلام وهو على حال المراقبة لله سبحانه وتعالى محبة وشوقاً وخشية ورجاء، وهذا هو معنى الإحسان.

والإيمان هو اعتقاد قد يكون علماً وقد يكون معاينة وقد يكون حقيقة، فلليقين مراتب ودرجات ثلاث: علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين، كما يشير إليها القرآن الكريم في قوله سبحانه: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾[التكاثر، ١٠٢: ٥]، وقوله تعالى:﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾[التكاثر، ١٠٢: ٧]، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة، ٥٦: ٩٥]، وقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الحاقّة، ٦٩: ٥١]. على أنّ الإيمان بدرجة علم اليقين معتمد مقبول؛ والعلم أمر يتعلق بإدراك العقل، ويقينه يحصل بطمأنينة القلب وتصديقه الجازم.

والعلم بأركان الإيمان مع قَبول العقل لها هو أدنى درجات الإيمان وبه يكون الإنسان المكلف مؤمناً، غير أن الإيمان بهذه الدرجة قابل للتزعزع، ويمكن للشبهات أن تعصف به ولرياح الشك أن تزعزعه ولأعاصير الابتلاءات أن تقتلعه. لكن الارتقاء بالإيمان إلى درجات أعلى من علم اليقين هو ما يجعله راسخاً ثابتاً لا يقبل التراجع، وهذا إنما يكون باستشعار شهود آياته سبحانه المتجلي بها على الوجود، ومن أوضحها تجلياً ما يكون منها في نفس الإنسان كما في قوله سبحانه: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[الذاريات، ٥١: ٢٠-٢١]؛ أو باستشعار نظره تعالى إلى قلب المؤمن، تنبّهاً لقوله تعالى:﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[ق، ٥٠: ١٦]،وهذا مقام الإحسان وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. وبهذا تتضح معالم صلة الإسلام والإيمان بالإحسان.

خامساً: زيادة الإيمان ونقصانه

وكما يقرر حجة الإسلام أبو حامد الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين، "الإيمان اسم مشترك يطلق من ثلاثة أوجه: الأول أنه يطلق للتصديق بالقلب على سبيل الاعتقاد والتقليد من غير كشف وانشراح صدر، وهو إيمان

العوام بل إيمان الخلق كلهم إلا الخواص، وهذا الاعتقاد عقدة عن القلب، تارة تشتد وتقوى وتارة تضعف وتسترخي، كالعقدة على الخيط مثلاً"[١٨].

"والإطلاق الثاني: أن يراد به التصديق والعمل جميعاً، كما قال صلى الله عليه وسلم: "الإيمان بضع وسبعون باباً"[١٩]، وقال صلى الله عليه وسلم: "لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ"[٢٠]، وإذا دخل العمل في مقتضى لفظ الإيمان لم تخف زيادته ونقصانه، وهل يؤثر ذلك في زيادة الإيمان الذي هو مجرد التصديق هذا فيه نظر، وقد أشرنا إلى أنّه يؤثّر فيه"[٢١].

"والإطلاق الثالث: أن يراد به التصديق اليقيني على سبيل الكشف وانشراح الصدر والمشاهدة بنور البصيرة، وهذا أبعد الأقسام عن قبول الزيادة، ولكني أقول الأمر اليقيني الذي لا شك فيه تختلف طمأنينة النفس إليه، فليس طمأنينة النفس إلى أن الاثنين أكثر من الواحد كطمأنينتها إلى أن العالم مصنوع حادث، وإن كان لا شك في واحد منهما فإن اليقينيات تختلف في درجات الإيضاح ودرجات طمأنينة النفس إليه"[٢٢].

سادساً: بيان أركان الإيمان الستة

الإيمان بالله

أساس الإيمان وأصله هو الإيمان بالله تعالى المغروس في أصل الفطرة الإنسانية، الذي عرفته الأرواح ابتداء في عالم الذر وقبل الخلق، كما في قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾[الأعراف، ٧: ١٧٢]. وما نشهده من خواء روحي إنما ينبي عن توق الأرواح إلى معايشة تلك اللحظة الفارقة في صلتها الإيمانية بالخالق البارئ عز وجل.

والمسلم يؤمن ويوقن ويشهد أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ إله عظيم، ملك كبير، لا ربَّ سواه، ولا معبود إلا إيَّاه؛ قديم أزلي، دائم أبدي، لا ابتداء لأوليته، ولا انتهاء لآخريته؛ أحد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم

---

[١٨] أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، [بيروت: دار المعرفة] ج١، ص ١٢٠ وما بعدها.

[١٩] أخرجه الإمام أحمد في مسنده،٢/٤٤٥ برقم ٩٧٤٧،والترمذي في سننه،٥/١٠ برقم ٢٦١٤،وقال: حديث صحيح.

[٢٠] أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب إثم الزناة، ٨/١٦٤ برقم ٢٨١٠.

[٢١] أبو حامد الغزالي، المرجع السابق.

[٢٢] أبو حامد الغزالي، المرجع السابق

يكن له كفواً أحد؛ لا شبيه له ولا نظير وليس كمثله شيء وهو السميع البصير؛ وأنه تعالى مقدَّس عن الزمان والمكان، وعن مشابهة الأكوان، ولا تحيط به الجهات، ولا تعتريه الحادثات، مستوٍ على عرشه على الوجه الذي قاله، وبالمعنى الذي أراده، استواءً يليق بعزِّ جلاله، وعلوِّ مجدِه وكبريائِه؛ وأنه تعالى قريب من كلِّ موجود، وهو أقرب للإنسان من حبل الوريد، وعلى كل شيءٍ رقيب وشهيد؛ حيٌّ قيُّوم، لا تأخذه سنة ولا نَوم؛ بديع السماوات والأرض، وإذا قضى أمراً فإنَّما يقول له كُنْ فيكون؛ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ وَكِيلٌ[٢٣].

الإيمان بالملائكة

من أركان الإيمان كذلك الإيمان بالملائكة الكرام البررة عليهم السلام، وهم خلق نورانيون ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[التحريم، ٦٦: ٦].وقد أظهرتهم الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة في مواقف التبجيل والتكريم،بل والمحبة لهم، إذ ذكر الله منهم حملة العرش الذين علق الله تعالى قلوب المؤمنين بمحبتهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾[غافر، ٤٠: ٧]، ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[الشورى، ٤٢: ٥]، ومنهم الملائكة الذين يتعاقبون على البشر في الليل والنهار، ومنهم الحفظة الكاتبين الذين يلازمون الإنسان في كل أوقاته.

ومنهم الملائكة المكلفون بوظائف محددة تتعلق بالبشر منها:

الوحي: جبريل

الأرزاق: ميكائيل

النفخ في الصور: إسرافيل

قبض الأرواح: ملك الموت

---

[٢٣] الإمام عبد الله بن علوي الحداد، في عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة، خاتمة كتاب النصائح الدينية والوصايا الإيمانية،دار الحاوي للطباعة والنشر، ١٤١٣هـ، ص ٤١٥-٤١٦.

إحصاء الحسنات والسيئات: رقيب عتيد

سؤال القبر: منكر ونكير

خازن الجنة: رضوان

خازن النار: مالك

عليهم السلام جميعاً

الإيمان بالكتب والرسل

ومن أركان الإيمان التي لا يصحّ إيمان المسلم بدونها الإيمان بالرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام جميعاً وبالكتب السماوية التي أنزلها الله عز وجل ومنها صحف إبراهيم وموسى والزبور والتوراة والإنجيل والقرآن، ولم يرد قط في هذه الكتب وعد يتكفل الله فيه بحفظ كامل نصوصها إلا ما ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى:﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[الحجر، ١٥: ٩]. والإسلام هو الدينُ الذي استوعب جميع الأنبياء والمرسلين إيماناً وتصديقاً وولاءً ومحبة، وقد تعبدنا الله سبحانه وتعالى بضرورة الإيمان بكل الرسل والأنبياءِ عليهم صلوات الله تعالى وتسليماتُه.

فلا يصح عندنا إيمانُ مَن لم يعتقدْ نبوةَ سيدِنا نوحٍ أو سيدِنا إبراهيمَ أو سيدِنا موسى أو سيدنا عيسى وغيرِهم من الأنبياء الذين ذكرهم الله تعالى في كتابه العزيز بقوله تعالى:﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[آل عمران، ٣: ٨٤].وجعل القرآن الكريم من ركن الإيمان بجميع الأنبياء والرسل أساساً تنطلق منه الأمة في صلاتها بغيرها من الأمم قال تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[النساء، ٤: ١٣٦].

فالقاعدة العامةُ الحاكمةُ لصِلاتنا بجميع ساداتنا الأنبياءِ عليهم جميعاً الصلاة والسلام، هي صلةُ الإيمان والمحبة والاعتقادِ والاقتداء بهداهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾[الأنعام، ٦: ٩٠]، وأخذِ العبر والحِكَم من قِصصهم وأخبارهم مع الأمم السابقة؛ وأفضل الأنبياء هم أولو العزم من الرسل وهم: ساداتنا نوح

وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد[٢٤] عليهم السلام. فلا تفريق بين الرسل في الإيمان بهم، فالله تعالى يقول: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾[البقرة، ٢: ٢٨٥]، مع اعتقاد أفضلية بعضهم على بعض، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ﴾[البقرة، ٢: ٢٥٣].

وقد حظي أبو الأنبياءِ وخليلُ الرحمن سيدُنا إبراهيمُ عليه السلام بمكانة خاصة إذ إن له نوعَ تميز في صلتنا به من أوجه عدةٍ، منها نسبةَ الحنيفيةِ إلى حضرته، وأن نبيَّنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلّم من ذريته، والمعني بدعوته حين دعا اللهَ سبحانه وتعالى بقوله: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[البقرة، ٢: ١٢٩].

وإن لسيدنا موسى عليه السلام مِيزةً خاصّة أيضاً في صلته بنا تجلّت حين تردّد عليه سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم في رحلة المعراج القدسية، فكان في كلِّ مرة ينصحه أن يسأل الله عز وجل التخفيف عن أمّته في فريضة الصلاة المكتوبة إلى أن قضاها الله تعالى خمس صلوات بعد أن كانت خمسين صلاة[٢٥].

وأما سيدنا عيسى عليه السلام؛ فإن له مكانة خاصة في صلته بالأمة الإسلامية، إذ جعله الله تعالى من أخص علامات الساعة الكبرى ومن مفاتيح الفرج لهذه الأمة في آخر الزمان، ساعةَ نزوله عليه السلام، ما وصفه رسولنا: "فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ"[٢٦].

فما أجملَ مشهدَ النزولِ وهيبةَ مظهرِه عليه السلام، وليس في الوصف على هذا النحو التفصيلي والدقيق إلا مزيد يقين وتعلقٍ بفكر وفَهم وذوق لمعنى صلتنا بهذا السيد المكرم عند ربه، وقد تواترت الأحاديث التي تصف وقت ومكان

---

[٢٤] انظر سورة الأحقاف، ٣٥:٤٦.

[٢٥] راجع رواية الإمام البخاري في صحيحه [١٣٢/١]، كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء، ح[٣٤٩]؛ والإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، ١٧٦/٢ برقم ١٣٦ بشرح النووي، باب الإسراء برسول الله إلى السماوات وفرض الصلوات، من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله تعالى عنه.

[٢٦] أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، ٥١/١٨ ح[٢٩٣٧] بشرح النووي، باب ذكر الدجال وصفته وما معه، من حديث النَّوَّاسِ بن سَمْعَان رضي الله تعالى عنه، ومهرودتين أي: ثوبين مصبوغين بورس ثم بزعفران، والجمان: حبات من الفضة كبار تشبه اللؤلؤ في صفائها وحسنها.

وصفات نزوله المبارك[٢٧].

ولذلك فإن المسلم يؤمن بأن له صلة خاصة بالسيد المسيح عليه السلام وأنه سيقود المسلمين بعد نزوله بدين الله الذي أنزله على رسله وشرعه الذي جعل خاتمة مبلغيه سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم.

فالإسلام خاطب المؤمنين على نحو جعل عندهم تعلقاً خاصاً ومحبة عظيمة وترقباً يقينياً واستعداداً روحياً لاتباع سيدنا المسيح عليه السلام عند نزوله. جعلنا الله ممن يصطفيهم لمحبته وخدمته ونصرته آمين.

الإيمان باليوم الآخر

ومن أركان الإيمان أيضاً الإيمان بالبعث واليوم الآخر والحساب والجزاء بمقتضى الرحمة والعدل الإلهي، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[الفرقان، ٢٥: ٧٠]،﴿وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾[الشورى، ٤٢: ٣٠]،﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[الزلزلة، ٩٩: ٧-٨]، وهذا من شأنه أن يشحذ همة المؤمن ويقوي عزيمته على الأخذ بزمام نفسه للتشمير في الطاعات وفعل الخيرات، وكفها عن التمادي في الانصياع للأهواء وأوهام السعادة القائمة على الشهوات والملذات الفانية، كما تفتح للمؤمن آفاق النظرة الواسعة للمستقبل الممتد دون انحصار على المدة التي يقضيها في الدنيا.

الإيمان بالقدر

وآخر هذه الأركان الإيمان بالقدر خيره وشره، حلوه ومره، والإيمان بأنّ الكون لم يخرج عن تصرف رحمة الرب وعدله وحكمته، وهو الذي يجعل المؤمن يعيش حالة راقية من الرضا والطمأنينة والأمان والصبر.

هذا وإنّ جميع أركان الإيمان مؤشرات لها دلالاتها القوية في بناء النفس المطمئنة الواثقة بصلتها بالله عز وجل، وبما يظهر في رؤيتها للحياة، وما يترتب على ذلك من أفعال ومعاملات، خاصة في شمول مفهوم شعب الإيمان لكل أنماط الرؤية والتفاعل الإنساني.

---

[٢٧] علي الجفري، المسيح عيسى وأمه الصديقة عليهما السلام،[أبو ظبي:دار الفقيه،٢٠١١]، ص ١١-١٥.

سابعاً: شعب الإيمان

إنّ القاعدة الحضارية الحاكمة لمفهوم شعب الإيمان هي قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ- أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ- شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ"[٢٨].

وهكذا تكثر دلالات الترقي في دائرة شعب الإيمان وأبوابه ما بين كلمة التوحيد في الأعلى وإماطة الأذى عن الطريق في الأدنى لتشمل كافة مناحي حياة الفرد والجماعة، ومحبة الله والرسول وآله والأخ والجار من أعظمها، قال صلى الله عليه وآله وسلم: "ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ"[٢٩]؛ وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ مِنَ الْخَيْرِ"[٣٠]؛ وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: "لاَ إِيمَانَ لِمَنْ لاَ أَمَانَةَ لَهُ، وَلاَ دِينَ لِمَنْ لاَ عَهْدَ لَهُ[٣١]؛ وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: "ليس المؤمن الذي يبيت شبعان وجاره طاو"[٣٢]؛ وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ، مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَسْكُتْ"[٣٣]؛وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: "لاَ يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلاَ يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ، وَلاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ رَجُلٌ لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ"[٣٤]؛ وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلاَقَكُمْ، كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ, وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ

---

[٢٨] أخرجه الإمام مسلم في صحيحه،كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، ٦٣/١ برقم ٣٥ عن أبي هريرة رضي الله عنه، مع روايات مماثلة في البخاري وغيره من قبيل:"الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ"، و"الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ بَابًا، أَفْضَلُهَا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْعَظْمِ عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ"، و"الإِيمَانُ أَرْبَعَةٌ وَسِتُّونَ بَابًا، أَرْفَعُهَا وَأَعْلاَهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ"، و"الإِيمَانُ سَبْعُونَ،أَوِ اثْنَانِ وَسَبْعُونَ بَابًا، أَرْفَعُهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَدْنَاهُ إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ".

[٢٩] أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، ١٢/١ برقم ١٦.

[٣٠] أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ٢٠٦/٣ برقم ١٣١٦٩.

[٣١] أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ١٣٥/٣ برقم ١٢٤١٠.

[٣٢] عن أنس بن مالك رضي الله عنه في مسند البزار ٢٦/١٤ برقم ٧٤٢٩،وفي المعجم الكبير للطبراني، ٢٥٩/١ برقم ٧٥٤، وأورده الهيتمي في المجمع ١٦٧/٨،وقال: رواه الطبراني والبزار وإسناد البزار حسن.

[٣٣] أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره،١١/٨ برقم ٦٠١٨.

[٣٤] أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ١٩٨/٣ برقم ١٣٠٧٩.

لاَ يُحِبُّ وَلاَ يُعْطِي الدِّينَ إِلاَّ لِمَنْ أَحَبَّ، فَمَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ الدِّينَ فَقَدْ أَحَبَّهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يُسْلِمُ عَبْدٌ حَتَّى يُسْلِمَ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ، وَلاَ يُؤْمِنُ حَتَّى يَأْمَنَ جَارُهُ بَوَائِقَهُ"[٣٥]؛ وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ"[٣٦].

ثامناً: بناء النفس المؤمنة مقدمة بناء الحضارة الإيمانية

وذلك أن بناء النفس الإنسانية وتربيتها على مفهوم الإيمان بالأركان والخصال السابقة، ثم ما يتبعها من أمور سماها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شعب الإيمان، وما شرحه العلماء من دلالات زيادة الإيمان ونقصه، لها نتائجها في واقع الحياة على مستوى الفرد والجماعة والعالم وعلى كافة المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والمعرفية وصولاً إلى البناء الحضاري الإيماني ذاته.

إذ إنّ الإنسان،كما تشير إليه جميع الخطابات الدينية، مركب من روح ونفس وقلب وعقل وجسد، فإذا فقه الإنسان معنى المعاملة الإيمانية مع الله تعالى بكليته، أي بروحه وعقله وقلبه ونفسه وجسده؛ استقام الأمر فيما بينه وبين الله. وإذا صحت صلته بالله عز وجل صحت صلته بالخلق الذين يحيطون به، ومعنى هذا الكلام أن الاضطراب الذي نعيشه ويعيشه العالم- وليس المؤمنون فحسب – إنما هو نتيجة طبيعية لإعراض الإنسان وغفلته ونأيه عن الأمر الذي من أجله خلقه الله، ومن أجله سخر له الوجود.

الروح

والروح – كما يعرّفها الإمام الغزالي رحمه الله – هي النسبة الربانية في داخل الإنسان ونزعته إلى العالم الأعلى وإلى العالم الأقدس وإلى الصلة بسر الخطاب الأول الذي جرى بينه وبين الله عز وجل. وفي الروح تكمن نسبة المؤمن إلى ربه بالعبودية: ﴿**وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى** ﴾[الحجر، ١٥: ٢٩]، وهي مناط ارتقاء المؤمن في معارج المحبة:﴿**يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ** ﴾[المائدة، ٥: ٥٤]؛ هذه المحبة التي لها أحوال غير متناهية من الفناء في المحبوب عز وجل، إلى البقاء به، إلى الجمع عليه، إلى الفرق، إلى جمع الجمع، إلى فرق الفرق، وهكذا.

---

[٣٥] أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ٣٨٧/١ برقم ٣٦٧٢.

[٣٦] أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون وأن محبة المؤمنين من الإيمان وأن إفشاء السلام سبب لحصولها، ٧٤/١ برقم ٥٤.

النفس

والمقصود بالنفس ذلك الجزء القابل للتغيير في الإنسان ليتحدد بعد ذلك مدى صلته بالشقاوة أو السعادة وفق البيان الإلهي:﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[الشمس، ٩١: ٧-١٠].فأهم مكونات الإنسان التي تتعلق بالتغيير والتطور إلى الأعلى أو إلى الأسفل هي النفس، التي تترقى وتسمو في سبع مراتب ذكرها علماء التربية والتزكية.

مراتب النفس السبعة

وأولها النفس الأمّارة، التي أشار إليها قوله عز وجل على لسان امرأة العزيز: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾[يوسف، ١٢: ٥٣]،و"أمّارة" صيغة مبالغة، أي من شأنها مداومة تزيين السوء لصاحبها، إلا أن هذه النفس الأمارة يمكن أن ترتقي بالمجاهدة والتزكية إلى الرتبة الثانية، وهي النفس اللوّامة.

والنفس اللوامة هي التي تنزع تارة إلى الخير وتارة إلى الشر، فإذا ارتكب صاحبها الشر عادت عليه باللوم وطالبته بالتوبة والرجوع، وقد أشار إليها قوله تعالى:﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾[القيامة، ٧٥: ٢].

وأرقى منها في الرتبة الثالثة، هي النفس الملهمة، المشار إليها في قوله تعالى: ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾[الشمس، ٩١: ٨]، فإذا ارتقى الإنسان في إيمانه بالله، صارت نفسه تتجافى عن نزعاتها وشهواتها، وحينما يبدأ الإنسان في معراج الارتقاء في صلته بالله عز وجل وهو يجاهد النفس اللوامة؛ تصبح هذه النفس لديها قابلية الاستلهام من حضرة الحق عز وجل، وتسكن فيها نزعات الهوى ونزغات الرغبة ويغلب على حالها التفكّر والتأمّل والتدبّر، فتُلهَم حسن الاستبصار وقوة الإدراك، ويشرق عليها من ذلك ميل إلى الخير والفضيلة.

فإذا واصل الإنسان الارتقاء في تزكية نفسه وصل إلى رتبة أعلى من النفس الملهمة ألا وهي النفس المطمئنة، وشاهدها في خطاب الله تعالى:﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾[الفجر، ٨٩: ٢٧]؛وهذه النفس لما أشرق على جنباتها نور الإلهام الرباني اطمأنت إلى الحق عز وجل، وقوي معنى اليقين فيها، فلم تعد متغيرات الواقع وظواهره المحيطة بها بقادرة على زعزعة هذه الطمأنينة فيها.

وهذه الطمأنينة سمة من سمات أحوال أولياء الله الصالحين، إذ يروى أنّ إبراهيم بن أدهم رحمه الله "ركب مرة سفينة فأخذهم الموج من كل مكان فلف إبراهيم رأسه بكسائه واضطجع، فلم تكن هناك وسيلة للتصرف في عالم الأسباب ولم يبق إلا الخوف أو الطمأنينة، وعجّ أصحاب السفينة بالضجيج والدعاء وأيقظوه وقالوا: ألا ترى ما نحن فيه من الشدة؟ – ولكم أن تربطوا هذه الحالة المضطربة بما يعيشه العالم اليوم من قلق وشدة جزع – فقال: ليس ذا شدة؟ قالوا: وما الشدة؟ قال: الحاجة إلى الناس، ثم قال: اللهم أريتنا قدرتك فأرنا عفوك فصار البحر كأنه قدح زيت"[٣٧]. فحين استحكمت الطمأنينة والاستقرار الداخلي في نفس رجل واحد أثمرت نوعاً من الاستقرار في الواقع لدرجة وُصِف معها البحر كأنه قدح زيت، وهو معنى نحتاج إلى أن نتلمّسه في نفوسنا لإحكام سفينة عالمنا اليوم.

ثمّ تلوح فوق ذلك في الأفق مرتبة أرقى هي الرتبة الخامسة للنفس ألا وهي النفس الراضية المشار إليها في قوله تعالى: ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً﴾[الفجر، ٨٩: ٢٨]، وهذا المعنى من الرضا هو أرقى من مجرد الرضا العام، وإنما استقرار الرضا في النفس بحيث تصبح راضية عن أفعال الله وتدبيره في هذا العالم، وهذا الرضا الذي محلّه القلب لا يتنافى ولا يتضاد مع عمل الجوارح في الأخذ بالأسباب في سبيل تغيير الواقع إلى الأفضل؛ فالكلام هنا عن نفس راضية ذات حكمة وعقلانية وعمق وليست نفساً مهملة للواقع ومعالجته والعمل على إصلاحه.

ثم تأتي الرتبة السادسة وهي النفس المرضية التي تشير إليها الآية نفسها: ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرۡضِيَّةً﴾[الفجر، ٨٩: ٢٨]، لشدة قربها من النفس الراضية، فمن رضي فله الرضا، ومن عاش معنى الرضا عن الله قابله الله عز وجل بالرضا منه فيكون عنده مرضياً.

فإذا اجتمع الرضا من العبد مع الرضا من الرب سبحانه وتعالى لاحت قابلية النفس للارتقاء إلى أعلى درجات النفوس الإنسانية وهي النفس الكاملة، والمقصود بالكمال هنا هو الكمال النسبي، لأن الكمال المطلق لله وحده، وهذا المعنى من الكمال الذي يتهيأ به الإنسان إلى ما لا نهاية له من آفاق الصلة بالله عز وجل.

العقل

أما العقل فمن أهم مكونات الإنسان، وهو الذي يميّزه عن غيره من المخلوقات، وهو ملمح الإدراك المتزن في الإنسان بين عواصف الأحداث المحيطة به وبين متغيرات نفسه في لحظات الغضب أو الحزن أو الفرح أو الحب أو البغض، إذ يأتي العقل ليزن الأمور استلهاماً من العلم؛ أي أن العلم الشرعي أو العلم التجريبي يرد كلاهما

[٣٧] جمال الدين أبو فرج الجوزي، صفة الصفوة، [القاهرة: دار الحديث، ٢٠٠٠]، ج٢، ص ٣٣٧.

على العقل الذي هو بدوره متهيئ لقبولهما فيستفيد منهما الإنسان بقوة عقله إذا خلص من تشويش أهواء نفسه وحظوظها.

القلب

وهو مالك القرار في الإنسان الذي يتأثر بأحوال الروح ومراتب النفس ونظر العقل ليصدر عنه الاختيار، وهو محل نظر الرب تعالى، كما جاء في الحديث الشريف: "إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صُوَرِكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم"[٣٨]. والارتقاء يجعل القلب يسمو ويعيش حالة اليقين في مراتبها الثلاث التي يذكرها أهل هذا الفن من علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين، وهو أرقى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان ولا منتهى لهذا المرقى بعد ذلك في استقرار قلبه. وبذلك يرتقي القلب في مقامات اليقين التسعة وهي: التوبة، والزهد، والصبر، والشكر، والخوف، والرضا، والرجاء، والتوكل، والمحبة، على ما أحصاها صاحب كتاب قوت القلوب[٣٩].

الجسد

وهو الوعاء الطيني الذي احتوى الروح والنفس والعقل والقلب، وله متطلبات منها ما هو حاجة، ومنها ما هو استجابة لهوى النفس. فالحاجة تدخل في حكم الواجب أو المستحب [كالأكل الضروري أو المفيد لنمو الجسد وبقائه والوقاية أو العلاج لسلامة الجسد أو تعافيه والنكاح الضروري أو النافع لبقاء جنس الإنسان وتكاثره]. في حين تدخل الاستجابة لهوى النفس في حكم المستحب أو المباح أو المكروه أو الحرام.

وهذه النظرة تشكل الفارق الدقيق لكنه الكبير أيضاً بين نظرة الحضارة الإيمانية ونظرة غيرها من الحضارات إلى الحياة وإلى دور الإنسان في هذه الحياة. إذ تنظر الحضارة المعاصرة إلى صلة الإنسان بالكون على أنه سيد العالم، له أن يستخدمه كما يشاء، حتى إذا جاء خطاب الحفاظ على البيئة فإنه يأتي في سياق الحفاظ على الإنسان وعلى مستقبل الأطفال الذين يعيشون على الكوكب، باستثناء بعض مؤسسات الحقوق المدنية التي لديها توجّه إنساني وتتكلم عن المعاني الراقية.

---

[٣٨] متفق عليه من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

[٣٩] أبو طالب المكي، قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد،تحقيق د. عاصم إبراهيم الكيالي،[بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٦هـ]، الفصل ٣٢ بعنوان شرح مقامات اليقين وأحوال الموقنين، ج١ ، ص ٣٠٢ وما بعدها.

لكن نظرة الحضارة الإيمانية إلى صلة الإنسان بالحياة التي يعيشها أرقى من ذلك، باعتباره خليفة الله في الأرض، وهذه النظرة تجعل الإنسان عندما يستمع إلى خطاب الحق من خلال فهم عقله له يرتقي بروحه إلى إنصاف الوجود ومكوناته.

فإذا فقه الإنسان تصحيح المقاصد في حياته، بدفع الغفلة عن القلب، وتصحيح معنى الإيمان، والارتباط بالله عز وجل، بمعنى أن تكون سائر شؤوننا وأفعالنا وحركاتنا وأقوالنا وسكناتنا، بل خطرات قلوبنا، إن استطعنا، لا تخلو عن فقه معنى العبودية لله في كل جزء من ذلك، فإن كان ذلك صحت تعاملاتنا في العلاقة مع الخلق تسخيراً وإعماراً واستخلافاً.

وذلك أن للإنسان غاية من الوجود وهي العبادة ومهمة وهي العمارة وطريق لتحقيق الغاية والمهمة وهي التزكية، فهي ثلاثة أمور أساسية في الأرض، فنجد غاية العبادة في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات، ٥١: ٥٦]؛ ومهمّة العمارة في قوله تعالى:﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾[هود، ١١: ٦١]؛ وطريق التزكية في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[الشمس، ٩١: ٩-١٠].

فالله عز وجل جعلنا مسؤولين عن عمارة الأرض التي نعيش مرحلة من حياتنا فيها، عمارة نستفيد بها من الأرض ونحافظ بها عليها، وقد أخبرنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن "بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بني إِسْرَائِيلَ رأت كَلْباً يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ قَدْ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ فَنَزَعَتْ مُوقَهَا فَاسْتَقَتْ لَهُ بِهِ فَسَقَتْهُ إِيَّاهُ فغفر الله لَهَا بِهِ"[٤٠]؛كما أخبرنا صلى الله عليه وآله وسلم عن "رَجُل لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ إلا أنه نَزَعَ مرة غُصْنَ شَوْكٍ عَنِ الطَّرِيقِ إِمَّا كَانَ فِي شَجَرَةٍ فَقَطَعَهُ وَأَلْقَاهُ وَإِمَّا كَانَ مَوْضُوعًا فَأَمَاطَهُ فَشَكَرَ اللهُ لَهُ بِهَا فَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ"[٤١].فاستشعارهما معنى المسؤولية بالرحمة تجاه الأرض ومن عليها كان سبباً في دخولهما الجنة.

ونحن بحاجة إلى أن نعيد النظر في ارتباط قيمة العمارة بقيمة التزكية وبالارتقاء إلى معنى الإيمان والعبودية لله عز وجل، إذ سيترتب على ذلك منهج حياة، وسلوك حضاري، وهذا المنهج لا يتطلب منا -كما يتوهم البعض-

---

[٤٠] أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب فضل ساقي البهائم المحترمة، ١٧٦١/٤ برقم ٢٢٤٥.

[٤١] أخرجه أبو داوود في سننه، كتاب الأدب، باب في إماطة الأذى عن الطريق، ٥٣٢/٤ برقم ٥٢٤٧.

الانعزال عن الواقع ولا الوقوع في متغيراته، وإنما الشأن في فقه التعامل الإيماني مع مكونات الواقع وأحداثه وصولاً إلى حضارة انسانية راقية.

أسأل الله تعالى أن يوفقنا إلى ذلك وأن يحققنا به وأن يعيننا على نشره إنه ولي ذلك والقادر عليه.

والحمد لله رب العالمين.